الباب الرابع

الحلم وبعض مكارم الأخلاق

الفصلُ الأوَّلُ : الحلمُ والسّؤدد .

الفصلُ الثَّاني : الحلمُ وكَرَمُ النَّفسِ .

الفصلُ الأوّلُ

الحِلْمُ والسُّؤْدُد

* قالَ سابق البربري في سؤدد الحليم :

ألـمْ تَـرَ أنَّ الحلـمَ زيـنٌ مُسَـوِّدٌ لصاحبِهِ والجهل للمرءِ شائنُ
فكُنْ دافناً للجَهْلِ بالحلمِ تَسْتَرِحْ منَ الجهلِ إنَّ الحلمَ للجَهْلِ دافِنُ

* منذُ أن فطرَ اللهُ عزَّ وجلَّ الإنسانَ ، جعلَ الحلمَ دليلاً على أخلاقه ؛ وقد أدركَ العربُ قديماً مكانةَ وقيمة هذا الأدبِ العظيم ، وجعلوه مفتاحَ أعمالهم وسؤددهم ، فقد كان العربُ في الجاهلية يختارون رئيسهم وقائدهم من ذوي الأحلام مع شجاعته ، قال محمد بنُ كنانة : إنَّ أهلَ الجاهليَّةِ لم يكونوا يُسوِّدونَ رجلاً ، حتى يكونَ حليماً ، وإن كان شجاعاً سخيًّا .

* وقال الكلبي : ما كانَ أهلُ الجاهليَّةِ يشرفون بيسار[1] ، ولا شجاعةٍ ، ولكن حلمٌ وسخاء .

* وكانوا يتواصون فيما بينهم بالحلمِ والتحلُّمِ ، كما يوصون بالعلم ، وقد حُفِظَ من حِكَمِ لقمان لابنه أنَّه يوصيه بالحلم الذي يُزيِّنُ العلم ، وفي ذلك يقول : يا بُنيّ ، العلمُ حَسَن ، وهو مع الحلم أحسن .

* وقال لابنه أيضاً : أي بُنيّ ، حليمٌ في صورته خيرٌ من صورةٍ لا حلمَ له . وقال له أيضاً : حليمٌ كلّما لقيكَ قرعكَ بعصاه ، خيرٌ من سفيهٍ كلّما لقيكَ سرَّك .

* وقال لقمان أيضاً : إذا أردتَ أن تؤاخيَ رجلاً فأغْضِبْهُ ، فإن أنصفكَ في غضبه ، وإلا فَدَعْهُ[2] .

* وكانت العربُ ترى أنَّ طاعةَ الحليم والائتمار بأمره

---

(١) « اليسار » : الغنى والثراء والمال .
(٢) العقد الفريد (٢/ ٢٨٥ و ٢٨٦) .

نجاحٌ وفَلاحٌ ؛ والمرءُ لن يبلغَ السُّؤدُدَ إذا تبعَ هواهُ ، قال الشَّاعر :

وإذا استشارَكَ مَنْ تودُّ فقُلْ له أطِعِ الحليمَ إذا الحليمُ نهاكا
واعلم بأنَّكَ لن تسودَ وأن ترى سُبُلَ الرَّشادِ إذا أطعتَ هواكا

* وكان سلم بنُ نوفل سيِّدُ بني كنانة ، فوثبَ رجلٌ على ابنه وابنِ أخيه فجرحهما ، فأُتِيَ به ، فقال له : ما أمَّنَكَ من انتقامي ؟

قال : فلِمَ سَوَّدْناكَ إذاً ، إلا أن تكتُمَ الغيظ ، وتحلُمَ عنِ الجاهلِ ، وتحتملَ المكروه ؟! فخلَّى سبيلَه ، فقال فيه الشَّاعر :

يُسَـــوَّدُ أقـــوامٌ وليســـوا بســـادةٍ
بلِ السَّيِّدُ الصِّنديدُ سلم بن نوفل[1]

* ويرى بعضُ العربِ أنَّ الحلمَ ذِلَّةٌ في بعضِ المواطن ، إذ ربما يتعرَّضُ الحليمُ إلى بعض السُّفهاء ، وعندها تظهرُ

---

(١) العقد الفريد (٢/ ٢٨٨) .

ماهيةُ الحلم وحقيقتُه ، وسؤددُ الحليم وعِزُّه ، وفي هذا يقولُ سالم بن وابصةَ الأسدي :

أرى الحلمَ في بعض المواطنِ ذُلَّةً ... وفي بعضها عِزًّا يُشرّفُ فاعلُه
إذا أنتَ لم تدفَعْ بحلمِكَ جاهلاً ... سفيهاً ولم تقرن به مَنْ تجاهلُه
لبستَ له ثوبَ المذلَّةِ صاغراً ... وأصبحتَ قد أودى بحقِّكَ باطلُه
تخلَّقْ على جُهَّالِ قومِكَ إنّه ... لكلِّ حليمٍ موطنٌ هو جاهلُه

* وقد أُثِرَ عن عليّ بن الحُسين أنَّه قال : كان يُقال : السُّؤددُ الصَّبْرُ على الذُّلِّ .

* ولعلَّ المعنى هنا التحلُّمُ على الجاهلين ، إذ الحلمُ زينةٌ للمرءِ ، كما قال الشَّاعر :

الحلمُ زينٌ والتَّقيُّ كريمٌ ... والصَّبرُ خيرُ مراكبِ الصَّعْبِ

* فالمرءُ الحليمُ لا يرى الحلمَ زينةً له فيعطيه للجهول ، وقد شبَّهوا الجهولَ السَّفيهِ بالكلبِ ؛ قال كعبُ الأحبار : إنَّ لكلِّ قومٍ كلباً فاتَّقيه لا يتَّصِلَنَّ بكَ شَرُّهُ .

* والحليمُ يرى في الحلمِ أحلى عاقبة ، فالحلمُ أنفعُ شيءٍ

للمرءِ ، وما أجملَ أن يقتعدَ الإنسانُ سُدَّةَ المجدِ وهو يتحلّى بالحلم :

يا حبَّذا الحلمُ ما أحلى مغبَّتَهُ جـدًّا وأنفعـهُ للمـرءِ مـا عـاشـا

* قال عبدُ الملك بنُ صالح : الحلمُ يحيا بحياةِ السُّؤدُد .

ولهذا عرفَ النّاسُ سؤدُدَ معاوية رضي الله عنه وأرضاه بحلمه ، فقد وردَ أنَّ رجلاً أسمعَهُ كلاماً شديداً ، فقيل له : لو عاقَبْتَهُ ؟ فقال : إنّي لأستحي أن يضيقَ حلمي عن ذنبِ أحدٍ من رعيَّتي .

* ولهذا فإنَّ معاويةَ رضي الله عنه قد وصلَ إلى الشَّرفِ وإلى السُّؤدُدِ الذي أراده من رعيَّته ، لما كان منه من حلمٍ وأناةٍ وصبر ، ولهذا قيل : مَنْ حَلُمَ شَرُف ، وقالتِ العرب : لا سُؤدُدَ مع الانتقام .

* وكان معاويةُ رضي الله عنه ، يُدركُ أنَّ السُّؤدُدَ بالحلم ، فقد سألَ مرَّةً عرابةَ بن أوسٍ فقال : يا عرابة ، بِمَ سُدْتَ قومكَ ؟

قال : كنتُ أحلمُ عن جاهلهم ، وأعطي سائلهم ، وأسعى في حوائجهم .

* وورد أيضاً أنَّ معاوية سألَ بني طيىء : مَنْ سيِّدكُم ؟

قالوا : خُريم بن أوس ؛ من احتملَ شَتْمنا ، وأعطى سائلنا ، وحَلُمَ عن جاهلنا .

* وقالت أهلُ الحِكَمِ : لا يظهرُ الحلمُ إلا مع الانتصارِ ، كما لا يظهرُ العفو إلا مع الاقتدارِ .

* وقيل : إنَّ الله سمَّى يحيى عليه السَّلام سيِّداً لحلمه[1] .

* ورُويَ أنَّ الرَّشيدَ قال لأعرابي : بِمَ بلغَ فيكم هشام بن عروة هذه المنزلة ؟

قال : بحلمه عن سفيهنا ، وعفوه عن مسيئنا ، وحمله عن ضعيفنا ، لا منّانَ إذا وهَبَ ، ولا حقودَ إذا غضب ،

---

(١) أدبُ الدُّنيا والدِّين (ص ٤٠٠) ؛ والآية الكريمة هي : ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران : ٣٩] .

رَحْب الجنان ، سمح البنان ، ماضي اللسان .

قال : فأومأ الرَّشيدُ إلى كلبِ صيدٍ كان بين يديه وقال : واللهِ لو كانت هذه الخصال في هذا الكلب لاستحقَّ بها السُّؤدُدَ[1] .

* ومن أمثال العرب : احلم تَسُدْ . قال الشَّاعر :

لن يبلغَ المجدَ أقوامٌ وإن شرفوا ... حتّى يـذلَّ وإن عـزّوا لأقـوامِ
ويُشتمـوا فترى الألـوانَ مُسْفِرةً ... لا صَفْحَ ذُلٍّ ولكن صَفْحَ إكرامِ

* وقال آخر وقد عُرف بالسُّؤدُد :

وجهلٍ ردَدْناهُ بفضلة حلومنا ... ولو أنّنا شئنا ردَدْناهُ بالجهلِ

* وقال أحدُ البُلغاء :

حليمٌ إذا ما الحلمُ زيَّن أهلَه ... مع الحلمِ في عَيْنِ العدوِّ مهيبُ
إذا ما تراءاه الرِّجالُ تحفَّظوا ... فلم ينطقِ العوراءَ وهو قريبُ

---

(١) المستطرف (١/ ١٩٤) .

* وسُئِلَ الأحنفُ بن قيس ، فقيل له : ما الحلم ؟

قال : أن تصبرَ على ما تكره قليلاً .

* وقال وهبُ بنُ منبّه : مكتوبٌ في الحكمة : قَصْرُ[1] الغايات ثلاث : قصرُ السَّفَهِ الغضبُ ، وقَصْرُ الحلمِ الرَّاحة ، وقصرُ الصَّبرِ الظّفر .

* إنَّ السِّيادةَ تُنالُ بالتَّرفُّقِ والتَّأنّي والحلم ، وذو السُّؤدُدِ لا يعجلُ بسبابٍ أو بذاءةٍ ، وهكذا فالحلم زينٌ للفتى ، يرفعُ مقامَه ومكانته ، وهو أحسنُ عاقبة ، وخيرٌ منقلباً ، ولا فظاظة إلا مع المعتدي الظّالم الغاشم :

إذا شئتَ يوماً أن تسودَ عشيرةً فبالحلمِ سُدْ لا بالتّسرُّعِ والشَّتمِ
وللحلمِ خيرٌ فاعلمنَّ مغبَّةً من الجهل إلا أن تسمَّر من الظلم

* وفي نصائح لقمانَ لابنه تظهرُ فضيلة الحلم المرتبطة

---

(١) أي : نهاية الأمور .

بالسِّيادة والسُّؤدُد ، وقد بدأ إحدى نصائحه لابنه بالحلم فقال :

يا بنيَّ عليكَ بخلالٍ إن تمسَّكْتَ بهنَّ لم تزلْ سيِّداً :

ابسِطْ حلمَك للغريب والقريب ، وأمسِكْ جهلكَ عن الكريمِ واللَّئيم ، واحفظ إخوانكَ ، وصِلْ أقاربكَ ، وليكن خلالكَ من إذا فارقتهم وفارقوكَ لم تبِعْهُم ولم يبيعوكَ[1] .

* * *

(١) انظر : الجليسُ الصَّالح الكافي (٤/ ١٢٢) ، عالم الكتب ، بيروت ، ط ١ ١٩٩٣ م .

الفصلُ الثَّاني

الحلمُ وكرمُ النَّفس

* لعلَّ ارتباطَ الحلمِ بكرمِ النَّفسِ يُبيِّنُ لنا مكانةَ الحلم في عالمِ الأخلاقِ ، لأنَّ كرمَ النَّفسِ يدلُّ على عُلوِّ الهِمَّة ، والعاقلُ مَنْ عرَفَ قَدْرَ نفسه ، وتوقَّفَ عند ذلك وحَلُم .

* ذكرَ عمر بن حفص بن غياث عن أبيه قال : كنتُ جالساً عند جعفر بن محمد ، ورجلٌ يشكو رجلاً عنده يقول :

قال لي كذا ، وفعل بي كذا ، فقال له جعفر : مَنْ أكرمكَ فأكرمه ، ومن استخفَّ بكَ فأكرِمْ نفسكَ عنه[1] .

---

(١) روضة العقلاء (ص ٣٤٩) .

* إنَّ كريمَ النَّفسِ يجعلُ الحلمَ شعارَه ، والأناةَ دِثارَه ، فإذا ما ثارت ثائرتُه يتذكَّرُ ويذكرُ حلم الله تعالى ، يقولُ أبو حاتم البستي : الواجبُ على العاقل إذا غضبَ واحتدَّ أن يذكرَ حلمَ الله عنه ، مع تواتر انتهاكه محارمه ، وتعدّيه حُرماته ، ثم يحلمُ ، ولا يخرجه غضبه إلى الدُّخولِ في أسباب المعاصي ، والنَّاسُ على ضروبٍ ثلاثة :

رجلٌ أعزُّ منك ؛ ورجلٌ أنتَ أعزُّ منه ، ورجلٌ ساواكَ في العزِّ ؛ فالتجاهلُ على مَنْ أعزَّ منه لؤم ، وعلى مَنْ هو أعزُّ منك جنف[1] ، وعلى من هو مثلك هراشٌ كهراشِ الكلبَيْن ، ونقارٌ كنقارِ الدِّيكَيْن ، ولا يفترقان إلا عن الخدش والعقر والهجر ، ولا يكادُ يوجدُ التّجاهل وتركُ التّحالم إلا من سفيهَيْن ، ولقد أحسنَ الذي يقول :

مـا تـمَّ حلـمٌ ولا علـمٌ بـلا أدبٍ
ولا تجـاهـلَ فـي قـومٍ حليمـان

---

(١) « جنف » : جور .

ومـا التَّجـاهـلُ إلا ثـوبُ ذي دنـسٍ

وليـــس يلبسُـــه إلا سفيهـــان[1]

* ومكارمُ الأخلاقِ ليس لها حدود ، والعاقلُ الحليم مَنْ يتجمَّلُ بالحلم والعلم ، ويزدان بالأدب ، ليحفظَ مكانة نفسه وقَدْرها ، وقد كان كثيرٌ من السَّلفِ الصَّالحِ يَزْوَرُّونَ عمّا يسقطُ قدرهم ، ويتحاشون السَّفلة من سواد النّاس .

* روي أنَّ رجلاً استطال على سليمان بن موسى فسكتَ عنه سليمان ، وانتصر له أخوه ، فقال مكحول الشّامي : ذلَّ مَنْ لا سفيه له .

* وهذا حالُ العُقلاء ، وذوي النُّفوسِ الكبيرة والهممِ العالية ، فإذا ما خُيِّروا بين أن يحلموا أو يجهلوا ، اختاروا الحلم ولزموه ، وجانبوا الجهلَ والغضبَ وابتعدوا عنه ، وربما ينتصرُ لهم بعضُ الجُهلاء ، ولذلك أُثِرَ عن مكحول الشَّامي قوله : لا حلمَ لمَنْ لا جاهلَ له .

---

(١) روضة العقلاء (ص ٣٤٨ و ٣٤٩) .

* وهذا الحلمُ يحتاجُ إلى الصَّبرِ والعلم وخصوصاً من العالم ، قال أبو حاتم البستي : ما ضُمَّ شيءٌ إلى شيءٍ هو أحسنُ من حلمٍ إلى علم ، وما عُدمَ شيءٌ في شيءٍ هو أقبح من عدمِ الحلمِ في العالم ، ولو كان للحلم أبوان لكان أحدُهما العقل ، والآخرُ الصَّبر ، وربّما يُدفعُ العاقلُ في الوقتِ بعد الوقت ، إلى مَنْ لا يرضيه عنه الحلم ، ولا يُقنعُه عنه الصَّفْحُ ، فحينئذٍ يحتاجُ إلى سفيهٍ ينتصرُ له ، لأنَّ تركَ الحلم في بعض الأوقاتِ من الحلم[1] .

* إنَّ مَنْ يعرفُ قَدْرَ نفسه ، يعرفُ كيف يكون حليماً ، ذكرَ ابنُ عبد ربّه أنَّ المسيح بن مريم عليه السَّلام مرَّ بقومٍ من اليهود فقالوا له شرًّا ، فقال خيراً ، فقيل له : إنَّهم يقولون شرًّا ، وتقول لهم خيراً ؟

فقال : كلٌّ واحدٍ ينفقُ ممّا عنده[1] .

---

(١) العقد الفريد (٢/ ٢٧٦) .

* وهكذا يكونُ العالمُ الحليمُ ، فالعلمُ أشرفُ الأحساب ، والحلمُ أشدُّ الأسباب ، وما أجملَ الحلمَ والعلمَ إذا اجتمعا في الإنسان! :

الحلمُ والعلمُ خُلَّتا كَرَمٍ
للمرءِ زينٌ إذا هما اجتمعا
صنوان لا يَسْتَتِمُّ حسنُهما
إلا بجمعٍ لذا وذاكَ معا

* * *